الفصل الثامن والثلاثون

مظاهرة سلمية

كانت مها وحياة تنتظران على الموقف قدوم تكسي يقلهما الى البيت فقالت مها:

-لماذ تتردد النساء؟ انني لاأنام طوال الليل.. رجالنا بين أيديهم يا حياة!

-وصلت الموسى الى ذقون النساء، انهم يعتقلوهن!

-مظاهرة سلمية.. ليس بيدنا بارودة ولا عصا!

-ألم تري كيف كان أحمد معارضا؟ ان له طباع والدي رحمه الله.. أذكر حين كنت صغيرة أنه كلما وقعت تحت يده قضية تمس سمعة امرأة، كان يأتي الى البيت، ويحلف على أمي بالطلاق ان غادرت البيت للزيارات أوالتـسوق.. وهكذا عاشت حياتها بين جدران أربعة لا تزور الاّ الجيران.. ولما كانت تملّ أحاديثهن، تلجأ لقراءة القرآن أو تطالع كتب الأدب وأشعارالقدامى والمحـدثين، حتى كتب القانون التي تحفل بها مكتبة والدي كانت جليسة لهـا فـي أوقـات فراغها.. وكنت أنا على صغر سني, من أشتري لها حاجاتهـا حتـى الثيـاب وأدوات الزينة!

ابتسمت مها وقالت: "التعامل مع الناس يصقل الخبرات ويجعـل الإنـسان أكثر فهما للحياة، لا أحب لأحمد أن تكون له هذه الطباع!.. أقنعت نفسي أنـه عارض خوفا من وجود من ينقل حديثه.. ألا تظنين ذلك؟

ومرت سيارة خالية فأشارت اليها حياة بالتوقف، وركبت المرأتان وعرفت السائق وقالت له:

-كيف الشغل؟

-أتركيها لله ياست.. كنا نكسب في النهارعشر ليرات، فلم نعد نكسب أكثر من خمس.. طارت البركة الله وكيلك!

-ماالسبب؟

-والله لا أعرف.. حركة البلد راكدة.. ما عاد الناس يسخون بمصاريهم..

-ألست أنت الذي ركبت معه منذ عام وكنت تبكي لأنك لم تـشاهد عبـد الناصر في المطار؟

-أي والله.. أنا أحبه ولا أزال.. رجل رفع رأسنا بين الأمـم.. بـس مـا بعرف ليش البركة طايرة.. بتذكر يومها كان عندي طلب للمطـار وبعـد مـا رجعت وصل عبد الناصر!.. طار عقلي، سمعت الخبر وأنا في المرجة.. لـو كنت تأخرت كم دقيقة كنت شفته!.. هلق ماعدت أهتم.. راكض ورا لقمتي مـا عم حصلها..

-سمعت بالمظاهرة النسائية طالعة اليوم؟

-عجيب والله! سمعة جديدة، ليش؟

-رجالهن معتقلون ولا يحاكمون..

-الناس مش مرتاحة.. كتار بيركبوا معي بـسمعهم متـذمرين.. لـيش؟ مابعرف..

-لأن البركة طارت مثل مابتقول.. وقّف هون!..

ونقدته أجره مع بحبوحة فدعا لها، وقالت لمها وهي تدخل بيتها:

-انني أكرم السائقين لأن عندهم أخبار البلد.. وهم بدورهم ناقلون ممتازون للأخبار، وكثيرون تشتريهم المباحث.. بوق دعاية مجانية للمظاهرة النـسائية، كما كان من قبل بوق دعاية لعبد الناصر! سمعت حديثه، النـاس ملّـوا مـن الدجل.. قال البركة طايرة.. ولا بد لأبناء الشعب أن يسألوا عن السبب الـذي طارت فيه البركة..

-هل ننتظر حتى يصل الوعي الى الجماهير فتأتي لإنقاذنا؟ مشكلة جماهيرنا أنها فردية.. كل واحد ينظر الى الأمور حسب معاناته ونضوب جيبه..

-يا مها الناس فقدت أخلاقها.. ناكرة للجميل.. ذهبت الى منزل الوزير، فكأنه لا يعرف عادل.. كم مرة داواه وعائلته قبل أن يصبح وزيرا.. المعروف ضائع، رجل يصل الليل بالنهار ليشفي أدواء الناس.. هذا مسكين، وهذا فقير.. نصف البلد تتداوى عنده إما مجانا، وإما بأجور رمزية، يعامل هذه المعاملة! قال لي الوزير "والله ليس بيدي شيء!" أرجل كراسي أصبح هؤلاء الوزراء!..

-والله أعرف كل شيء ياحياة!

-لماذا نحمل نحن السلم بالعرض؟ نهاجر الى أية بقعة في العالم، ونغتني مثل غيرنا بثقافتنا.. كل شيء له حد، ننسى أنفسنا، والمعروف ضائع مع البشر!

-لو سمعك أحمد لقال عنك انتهازية!

-ليقل عني ما يقول.. لست أفهم أن ينسى الإنسان نفسه ويضحي الى الدرجة التي يفعل بها أحمد.. أتيح له العمل في اليونسكو، وأتيح له العمل في السعودية، حرق مستقبله من أجل هذا البلد، فانظري بماذا يكافئه هذا البلد!

-يبدو أننا نحن النساء جميعنا تغلب علينا الإنتهازية، فاذا ما بدرت مني شكوى، أنبني وعاتبني فأرى أنه على حق وأنا على باطل.. وأشعر أنني ضئيلة أمام شوقه الملح لسعادة هذا البلد وازدهار مستقبله.. لم يندم يوما على أية فرصة أضاعها.. لا يمكن أن تقنعي أحمد أن يعيش لنفسه.. انه يحمل هذا القلق الإنساني تجاه بلده، ويشعر بأنه مسؤول عن كل أوجاع الأمة، كل فئة فيها، وكل فرد..

-يامها.. برأيي أن يعيش الإنسان بشرف ولا ينجرف مع المثاليـات.. ان الناس صاحون لمصالحهم أكثر منا.. تغمضين عينا وتفتحين أخرى فـاذا بهـم يرتفعون الى أعلى المناصب.. يكونون خلفك فاذا بهم سبقوك وترأسوا عليك.. جمعوا الأموال، وبنوا البنايات، واشتروا السيارات، وعلموا أولادهم في أفضل الجامعات.. هم دون أحمد في الكفاءات، فلمـاذا يكـون أحمـد دونهـم فـي الإمتيازات؟

-أحمد يبحث عن العدالة ولا يبحث عن الإمتيازات.. لأنه يعرف الحقيقة، لا يمكن له أن يكتمها، لأنه يدرك إدراكا فاجعا مأساة التخاف، لا يمكن لـه أن يهبش من مجتمعه حصة الأسد، ويترك الجائع والعاجز, ويستريح!..

-أحمد يابس الرأس.. في طفولته كان يضرب رأسه بالأرض حتى يلبـى طلبه كما كانت تقول أمي.. ليس من حكم لم يضرب رأسه به، رفاقه أصـبحوا فوق الريح..

-أيقاسون به يا حياة؟ لا يستحقون أن يعقدوا رباط حذائه! أحمـد عـالم، مناضل حقيقي لا مزيف..

- قاسى النفي والمطاردة بينما كانوا يلعقون أحذية كل دكتاتور مر علـى البلاد.. والنتيجة أنهم أصبحوا سادة البلاد، وعلينا أن نترجاهم ليخففـوا قبـضتهم على رجالنا..

-أنا لن أترجى ولكنني أطالب بحق المحاكمة، بحق إنساني عـادل.. لـن يغفر لي أحمد أنني رجوت خصومه..

عادت مها الى منزل العمة راضية لترضع الصغير فوجدته يـصيح بـين يديها، وكانت مغيظة من تأخّر مها خارج البيت فلم تـستطع أن تنجـز طعـام الغداء.. فقالت لها وهي ترضع الصغير الذي أخذ منه الجوع فهدأ:

-لا بأس! انني آكل من حواضر البيت، فلدينا أنا وحياة اجتماع في بيـت احدى الرفيقات، من أجل المظاهرة السلمية.. وسأحضر له بيبيرونة ليأخذها ان بكى في غيابي..

قادت حياة سيارة زوجها وذهبت ومها الى مقر الإجتماع.. وكانت النسوة مجتمعات في باحة المنزل العربي الواسع حول البركة.. ورحبت بهما صاحبة المنزل أجمل ترحيب.. ولما اجتمع العقد خرجت النسوة في صفوف منتظمـة، وكن قد أشرعن راية يطالبن فيها بالإفراج عن رجالهن أو محـاكمتهم، حتـى بلغن وزارة الخارجية..

احتشدت النسوة أمام وزارة الداخلية، وغصت بهن الساحة المتسعة أمـام البناء، وكانت مها وحياة واقفتان في المقدمة.. وتقدمت امرأة فارعة الطول ذات وجه جريء، وخاطبت رجال الشرطة الذين أشهروا بنادقهم..

-وسعوا لنا!

-ممنوع..

-نريد مقابلة الوزير..

-الوزير لا يريد مقابلة أحد..

-وسعوا لنا! أين يختبئ رئيسكم؟ خلف الأبواب؟

واندفعت النسوة يردن اقتحام الباب عنوة فدفعهن رجال الشرطة بالبنـادق في صدورهن.. وهتفت امرأة باسلة تهدر في وجوههم:

-أتوجهون بنادقكم الى صدورنا؟ سنكتب لأمهات تشيكوسلوفاكيا أن بنادقهم التي صنعها عمالهم توجه اليوم الى صدور أمهات سوريا لا الى المـستعمرين واسرائيل.. وصاحت بهم امرأة كهلة:

-أفسحوا لنا! ظلموا أولادنا.. ربيناهم بكل شبر ندر لشيخوختنا، فاذا بهـم في السجن لا يحاكمون!..

عرفتها مها، فهي أم الأخوين المناضلين "أمين", هرب أحدهما الى الخارج واعتقل أخوه.. قالت لها مها يوما "انك تشبهين الأم في رواية جوركي" فسرت كثيرا للتشبيه..

خرج شاب طويل نحيل يسأل ماالخبر.. كان هذا عبد الله الداية إبن التـي قامت بتوليد مها في همام، فلما أخبره الشرطي الأمر صاح منذرا متوعدا:

-روحوا من هون.. خائنات ونساء عملاء!

عرفته مها على الفور.. وهمست لحياة تخبرها أنه هو نفسه الـذي جـاء لاعتقالها حين كانت نفساء فأنقذتها الداية منه..

وهدرت موجة استياء ضاع فيها الكلام.. وسمعت مها امرأة تصيح:

-أنا أخت الشهيد عارف السبع.. البارحة قتل أخي في الجبهة دفاعا عـن سوريا فهل أصبح في نظرك خائنة؟ لملم نفسك واعرف من تحـدث! وتعالـت أصوات عديدة تهتف:

-البارحة كنا في المقاومة الشعبية نتدرب لـدحر العـدو، هـل أصـبحنا خائنات؟

-البارحة كنا نطرق الأبواب طوال النهار، ونصعد درجا وننزل آخر حتى تكلّ منا الأقدام لنجمع الأصوات حتى تتم الوحدة، فماذا تغير علينا الآن!

-الوحدة ملك الشعب وليست احتكارا لبنك مصر وجشع بنك مصر..

-كفى تنكلون برجالنا!

-دعونا نرى رجالنا!

-لماذا تزجونهم في السجون؟ لماذا تحرمون أطفالنا من آبائهم؟

-قدموهم للمحاكمة!

-قدموهم للمحاكمة ان كان لهم جرم..

-لماذا لا تتجرأون؟

-اننا نعرف لم لا تتجرأون..

-لأن العالم سيعرفكم على حقيقتكم..

-دولة مباحث!

-شعب سوريا حر، لا يقاد بالسوط!

-لتحيا سوريا وتسقط دولة المباحث! وهدر صوت جماعي للنسوة:

-لتحيا سوريا، وتسقط دولة المباحث!

ولطم أحد رجال الشرطة المرأة الفارعة فصاحت:

-أخرجوا من بلادنا! الشعب السوري لا يريدكم ياقتلـة سـعيد الـدروبي ومحي الدين فليون وجورج عدس!!!

كانت جماهير غفيرة من المارين قد أحاطت بالمتظاهرات ورجال الشرطة يحجزن المندفعات بالبنادق ولكنهن أفرجن لأنفسهن ممـرا لا يبـالين ضـرب الشرطة لهن بأعقاب البنادق وتعالت هتافات الإستنكار من الجماهير:

-أتضربون النساء؟ أليس لديكم شرف؟ ألستم من أبناء شعبنا؟

-منذ عام ونصف ورجالهن معتقلون..

-لماذا لايحاكمونهم ان كانوا مجرمين؟

-أو يفرجون عنهم ان كانوا أبرياء؟

واستطاعت ثمانية من مجموعة المتظاهرات أن يختـرقن حاجزالـشرطة ويدخلن الى الردهة.. وكانت حياة قد تلقت ضربة على رأسها وهي تقتحم الباب فاتحة طريقا لمها التي كانت تقف خلفها.. وشدت حياة على رأسها:

-دخت، يبعث له مصيبة تفرمه فرم، أبـو الـشفايف الغليظـة والـشنب الطويل..

-أين أتتك الضربة؟

-على رأسي!

-وأنا على كتفي! لاأقدر أن أحرك رأسي يمنة ويسرة..

دلّهن أحد المراجعين الذين حشروا في الردهة على غرفة الـوزير، ورأت مها رجلا بالغ الأناقة ينظر في عطفيه:

-ماذا تردن؟

-نطلب الإفراج عن أزواجنا..

-لا تتحدثوا جماعة! أنت ماذا تطلبين؟

-الإفراج عن جميع المعتقلين! لأنهم لم يقترفوا ذنبا يؤاخذون عليه.. فـيم يعتقلون؟

-رأيهم يختلف عن رأينا..

-هذا ليس بسبب.. قبل الوحدة كان لنا نائب في البرلمان يمثـل حركتنـا وأيدلوجيتنا فلماذا كان حزبنا معترف به، والآن تنكلوا به؟..

-لأن الوحدة ألغت الأحزاب.. ونشاطهم مخالف لقوانين البلاد..

-لماذا لا تحاكمونهم، وتفسحون لهم المجال للدفاع عن أنفسهم؟

-لأنهم عملاء!

واستنكرت المجموعة كلها هذا الإتهام اللئيم.. ولم تستطع مها الصمت:

-أنا زوجة أحمد عزيز القاضي.. انه صديقك، وتعرفه جيدا، هل قبض من الشرق أم الغرب حتى يكون عميلا؟

-لست أعني رجلا بالذات.. الحزب بمجمله يقبض من الشرق.. نحن حماة قومية عربية ووحدة، والشيوعيون عملاء، لا يؤمنون بالوحدة ولا القومية!

-لاتردد هذه الكلمة! انهم أوفياء لعقيدة يبرهن الزمن على صلاحها! ولستم أنتم من يحكم عليها!

-كل ما لم ينبع من أرضنا فهو دخيل وعميل!

-الأيدلوجية هي خلاصة التجربة الإنسانية لا يُحكم على معتنقها.. انها مثل الأديان التي حررت الإنسان من العبودية.. والتاريخ يحدثنا عن الرومان الوثنيين الذين كانوا يلقون بالمسيحيين الأوائل الى أفواه السباع، فكان النصر دائما للحركة التي تحررالإنسان، والسقوط الأبدي لمن يستعبد الإنسان!

-نحن لانحاكم أحدا.. تركنا لهم باب السجن مفتوحا فمن يوقّع على الإنسحاب من الحزب يخرج.. وهتفت أم المناضلين اللذين لجأ أحدهما الى بلد إشتراكي واعتقل الآخر..

-أبناؤنا لا يوقعون لأنهم شرفاء!

-ليبقوا في السجن! والآن هيا أخرجن لا وقت لدي.. عندي مراجعون!

-كنا نحتمل سجنهم لو احتل سوريا مستعمر أجنبي، أما أن تنكّل بهم الوحدة فهذا لا يحتمل!

وانبرت حياة بصوتها الجهوري تقول:

-أنا زوجة الدكتورعادل.. هل هو شيوعي حتى يعتقل؟

نهض الوزير واقفا معلنا انتهاء المقابلة دون نتيجة، وتجهم وجهه ولد في خصومته، وبدا أن الجو غدا حرجا عندما استدعى الشرطة ليخرجهن عنوة، وعلمت النساء أنهن لن يأخذن منه حقا، ولن يغيرن منه موقفا.. وخشين مغبة حديثهن على رجالهن، وندمت مها على تورطها فيما لم يعد بنفع على أحد.. وانصرفن جميعهن قبل أن يتبهدلن مجددا في هذه الورطة التي حشرن أنفسهن فيها!..

* * *

لو مست شعرة

ذكرت مها حين كانت تقص شعر زوجها بيد غير مرنة وهـو مختبـئ، وأحمد ينظر الى رأسه في المرآة ويقول ضاحكا:

-لا شوه الله مخلوقا! قصي هذه الخصلة الناشزة..

كانت مها منهمكة تبتسم ولا تجيب، وترفع الـشعر الـى أعلـى وتقـص أطرافه، ولكنه يأبى أن ينسجم معها فتعود الى التخفيف من كثافته فيرق أكثـر مما ينبغي وتقول وقد يئست أن تبلغ براعة الحلاق المحترف..

-ليتني أستطيع أن أتتلمذ على يد حلاق مدة أسبوع.. ان احدانا لا يخطـر لها انها تحتاج يوما لتحلق للرجال!

-ولا يخطر لبال مثلي أن يصبح مصلّح غسالات وكناسا وطباخا ومنظف صحون!

وقبلته مها وقالت:

-ياحبيبي لم أطلب يوما منك أن تفعل شيئا!

-شرف لي أن أخدم بيتي وأساعد حبيبتي.. ماذا أفعل بأوقات الفراغ؟

-اقرأ!

-أقرأ عشر ساعات في اليوم.. لقد صرت عالما..

وربتت مها على خده:

-انك عالم منذ تزوجتك..

-كم يحتاج الإنسان الى مثل هذه العزلة كي يصفو فكره ويـرى الأمـور بوضوح! يكون مثل قصير النظر الذي يجد نظارته.. ماذا تفعلين برأسي؟ هذه الجهة أرق شعرا من الأخرى.. وينك! أفضل حلّ أن تحلقيه لي على الصفر!

وضحكت مها وقالت:

-ان جريبالدي حلق في زمانه شعره على الصفر، لأن زوجتـه الغيـورة تخشى عليه من النساء الأخريات.. ماذا يهمك من أمر رأسك ما دامت عينـاي وحدها التي تراك؟

رن جرس التلفون فأمسكت مها بالسماعة في قلق واذا بـصوت غريـب يسأل: "أهذا منزل الأستاذ أحمد عزيز القاضي؟" "نعم،" فهلّل "أنا صـديق لـه أحببت أن أطمئنك عنه.. "خير ان شاء الله!.."

-كنت في بيروت وشاهدت أحمد قرب الروشة..

-حقا! هل كلمته؟ هل هو حقا في بيروت؟ انك لا تستطيع أن تعلم مـدى شغل بالي فهو منذ خرج من البيت لا أدري عنه شيئا، ماذا قال لك؟ ومن أنت؟

-لا أستطيع أن أخبرك على التلفون.. هل تقابليني في مكان ما فـأخبرك بكل شيء؟

-لا أستطيع! لدي مشاغل كثيرة ابني مـريض ولا أسـتطيع أن أتركـه لحظة..انني لا أخرج من البيت بسببه.. أما من ناحية زوجي فيكفينـي أننـي أطمئن عليه فشكرا لك على كل حال.. انه يعرف كيف يدبر شؤونه وليس لـي أن أقلق عليه..

-بل يجب أن تقلقي عليه لأنني شاهدته البارحة مع امـرأة جميلـة يعقـد ذراعها على طريق البحر، وارتبك كثيرا عنما رآني..

-لست أصدقك، انني واثقة من زوجي، وأنت لست صديقا له، فهذا لـيس كلام أصدقاء، بل كلام عدو سخيف!

وأطبقت مها التلفون وهي تبتسم ابتسامة تتكاف فيها العتاب..

-أهكذا تخونني البارحة وتضم امرأة جميلة على طريق البحر؟

والتقت شفتاهما في قبلة طويلة وهمس أحمد:

-أنت ضعيف الثقة بقدرتي النضالية لأنك تراني رقيقة، ولكنك لم تجـرب بعد عناد امرأة تحب..

ولم يلبث أن رن جرس الباب رنّة طويلة فنظر أحدهما في عيني الآخر في قلق.. كان الجرس حادثا يبعث على الذعر كأنما هو حجر يلقى على عصفورين يتناغيان على غصن شجرة.. انه يحمل معه كل عماء وقسوة العالم الخـارجي الذي يهدد أمن وسلام هذا البيت السعيد.. وقالت مها:

-رنة غريبة! ليست رنة سمير المزدوجة، وليست رنة أم فؤاد القصيرة.. اصعد أنت يا حبيبي الى السقيفة..

خلعت مشايتها وسارت على رؤوس أصابعها، فنظرت في العين السحرية فشاهدت حياة واطمأن قلبها.. ولكن وجوم حياة ورنّتها الطويلة أقلقتها.. فهتفت بها وهي تغلق الباب خلفها:

-كيف صحة عمي.. طمنيني!

-لم تتحسن حاله عن قبل! ولكن اعتقلوا عادل!

وانفجرت حياة بالبكاء..

-لا تبك ياحياة.. لن يصاب بأذى.. انه رجل مسالم غير منتم لحزب.. لا يعنيه سوى مهنته وسيفرجون عنه..

-كيف لا أبكي.. وحوش.. قتلوا إحسان زوج مليحة ألم تسمعي بمقتله؟

وصعقت مها للخبر، وثلجت أطرافها.. كيف لو وقع زوجها بين أيـديهم.. أخذت ترتجف وهي تصغي الى حياة تقص عليها ما يجري في العالم الخارجي من أحداث..

-يا مليحة، يا مليحة المسكينة، ان مصيبتها كبيرة أقسى منا جميعنا.. يجب أن أراها في الحال، ماذا ستقول عني؟ وأنا مشغولة بنفسي وبالصغير لا أدري عن مصيبتها شيئا..

-سنذهب معا، ولكن أين تبقين الصغير؟

-عند جارتي وسأوصيها بعزيز حين يعود.. ودلفت مها الى المطبخ حيث يختبئ أحمد في سقيفته..

-انها حياة.. وأخبرته بما حدث لإحسان، وباعتقال عادل وبرغبتها في أن تذهب وحياة لترى مليحة في محنتها، فأظلم وجهه حزنا وعض بنواجذه على يده، وأخذ يميل يمنة ويسرة وهمس "أسرعي اليها ولا تتأخري!"

ركبت مها الباص هي وحياة في طريقهما الى المزة.. كانت تشعر بشبه دوار في رأسها وعيناها مسمرتان على صورة تتدلى من مفتاح يقبض عليه رجل يبدو من ثيابه أنه من الطبقة الوسطى.. وكانت الصورة تهتز مع اهتزاز الباص وهي معلقة بسلسلتها الصفراء العتمة ، والوجه الضاحك الذي حفر أخاديد الألم في حياة الناس الشرفاء كان يتراقص معها كالبهلوان.. وأغمضت عينيها وقد أحست بهما تؤذيان.. ثم فتحتهما ونظرت من النافذة الى بعيد حيث يجلد الأحرار، وخيل اليها أن أنينهم يهدر في سماء دمشق، ولكن دمشق لا تحس بهم.. كيف للآذان أن تكون أصمة؟ وعادت الى الصورة تحدق بها والى حاملها الذي تراجع بسبب ركاب جدد.. أرادت أن تخطف نظرة الى وجهه لترى أي نمط من الناس هذا الذي لا يسمع الأنين.. ذلّ وبلادة إحساس، وجه مثل وجوه كثيرة رضيت أن تكون مداسا للجزمات.. وتأوهت مها:

-مجنون أحمد ومجنون نضاله.. ان كل هؤلاء الناس جديرين أن يحكمهم مثل هذا القائد! كلهم يتبعون السلطة التي تغني زيفها على نغم الطبول تلهبها العصا.. فكيف لهمسات الحقيقة أن تسمع؟..

وعندما بلغتا دار مليحة شاهدتا المنزل برسم البيع والأثاث يعرض في مزاد علني، فحزهما الألم للبيت الصديق الذي تحطم.. قالت مها وهي تنتظر باص العودة:

-لومست شعرة من رأس أحمد لقتلت نفسي! فقالت حياة:

-لو مست شعرة من رأس عادل لعشت حياتي كلها بعده للإنتقام!

* * *